في فلسفة الثورة الحسينية والإحياء الاسلامي

السؤال المطروح في هذه المقالة هو هل يوجد رابط جوهري بين فلسفة الثورة الحسينية وبين تحولها الى مشروع احياء اسلامي لمختلف المجتمعات الاسلامية دون استثناء؟

الجواب على هذا السؤال مرتبط ببيان حقيقة الثورة الحسينية وفلسفتها، اي لماذا ثار الامام الحسين(ع) وما هي الاهداف التي كان يريد تحقيقها؟

لن نستطيع ان ندرك حقيقة ثورة الامام الحسين(ع) اذا لم ندرك حقيقة المشروع الاموي، وانه هل كان مجرد مشروع سلطوي ام انه كان ابعد من ذلك؟ اي كان مشروعاً يريد ان ينقلب على حقيقة الدين الذي جاء به النبي محمد(ص)، ويمارس ملكاً عضوصاً يوظف في تجويف ذلك الدين وتشويه حقيقته فضلاً عن ممارسة الظلم والافساد في الارض..

يمكن القول ان المشروع الاموي ذو شقين: سلطوي ومعرفي كل منهما ذو هدف برأسه؛ وقد لا نحتاج الى كثير نقاش في الشق السلطوي من ذلك المشروع، انما يقع النقاش في شقه المعرفي، انه هل كان موجوداً ضمن مفاصل ذلك المشروع الاموي بحيث يصح الحديث في مشروع معرفي للسلطة الأموية؟ واذا كان الامر كذلك فما هي عناوين ذلك المشروع؟

يمكن اجمال تلك العناوين فيما يلي:

1- اسقاط مدرسة اهل البيت(ع) كمرجعية دينية سياسية وهذا كان واضحاً من خلال تكريس سنّة اللعن والسب للامام علي(ع) والاصرار عليها، فعندما يُقال لمعاوية: " لقد بلغت ما أملت، فلو كففت عن سب علي" فيجيب: "لا حتى يربو الصغير ويهرم عليه الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلاً"..
2- تكوين مرجعية بديلة عن اهل البيت(ع) بالمعنى المعرفي والديني، يذكر ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة ان معاوية كتب الى عماله ".. ان الحديث في عثمان قد كثر وفشا.. فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس الى الرواية في فضائل الصحابة.. ولا تتركوا خيراً يرويه احد من المسلمين في ابي تراب الا وتأتوني بمناقض له في الصحابة فإن هذا احب الي وأقر لعيني وادحض لحجة ابي تراب وشريعته.."
3- انتاج ثقافة دينية تقوم على طاعة السلطان والرضوخ للسلطة اية سلطة ومهما فعلت.

4- التأسيس لمشروعية جديدة تختلف عن المشروعيات التي كانت مطروحة(النص والشورى).

5- تسويق فهم للخلافة ودورها ووظائفها وحدودها مختلف عنا جاء به الاسلام.

6- تهميش سنّة رسول الله(ص) ومحاصرتها وتعطيل مفعول كل ما يتعارض منها مع مصالح السلطة.

7- تقديم تأويل للكتاب يخدم مصالح السلطان وأهدافه.

من خلال ما تقدم يمكن ان ندرك اهداف ثورة الامام الحسين(ع) والتي نستطيع اجمالها باسقاط المشروعية عن المشروع الاموي وافشاله وذلك من خلال تحقيق الأهداف التالية:

1- إسقاط المشروعية الدينية عن المشروع الاموي وفضح حقيقة هذا المشروع.

2- نزع المشروعية الدينية والسياسية عن السلطة الاموية.

3- تحصين الامة من استهداف ذلك المشروع وذلك من خلال ايجاد شرخ وجداني ونفسي بين الامة والسلطة.

4- حفظ الدين الذي جاء به محمد بن عبدالله من عبث السلطة وفسادها أو اي عبث آخر.

5- تحقيق الاصلاح بمعناه الشامل من خلال فعل الشهادة.

6- اعادة توجيه الامة الى اهل البيت نبيها من خلال التنوير العاطفي وعاطفة جاذبية المظلومية وايقاظ الوعي.

7- صدم وجدان الامة يهدف تحريك الوعي وتحفيز الارادة للثورة المستديمة على السلطة ومشروعها.

يمكن القول ان ثورة الامام الحسين(ع) استطاعت تحقيق تلك الاهداف واظهرت من هم المؤتمنون على الدين ورسالة الاسلام اي الذين كانوا مستعدين لتقديم الغالي والنفيس عندما يتعرض هذا الدين للخطر والتشويه وعندما تتعرض الامة للفساد واستلاب الارادة وتخدير الوعي. ومن هنا نعبر الى الاحياء العاشورائي وتقاليده لنقول انه اذا كانت تلك هي حقيقة الثورة الحسينية، وكانت تلك الاهداف هي الاهداف الحقة لتلك الثورة: فإن احياء عاشوراء هو احياء لحقيقة الثورة وحقيقة اهدافها اي ان الاحياء العاشورائي يهدف الى ابقاء تلك الاهداف حيّة في وجدان الامة، فاعلة في وعي ابنائها نابضة في قلوبهم لتحييها وتحيا بها ما كرّ الجديدان.

وهنا يطرح السؤال التالي وهو هل هذه هي الاهداف هي اهداف مذهبية، ام انها أهداف عابرة للاطر المذهبية الى الاطار الاسلامي العام بل والانساني ايضاً؟

من الواضح ان مجمل هذه الاهداف هي اهداف اسلامية عامة عابرة للمذهبية وليست خاصة بمذهب دون آخر، وعليه فإن احياء عاشوراء هو في حقيقته احياء لهذه الاهداف الاسلامية العابرة للمذاهب والتي تختص بمذهب دون آخر اي هو احياء للاسلام الذي جاء به محمد بن عبدالله(ص) او هو بتعبير ادق احياء للامة وللمجتمعات الاسلامية بالاسلام ومفاهيمه وقيمه ولذلك يجب ان يكون الخطاب العاشورائي (وكذلك جميع التقاليد العاشورائية) معبراً عن هذه الحقيقة في مسعى دائم الى ابقاء جذوة تلك الاهداف مشتعلة في القلوب والنفوس.

ونعود الى السؤال الاساس الذي طرح في بداية هذه المقالة لنقول في مقام الجواب ان حقيقة الثورة الحسينية وحقيقة اهدافها والمعنى الحقيقي للاحياء العاشورائي، كل ذلك يؤسس لامكانية وجود احياء اسلامي عام غير محصور في الاطار المذهبي.

اي انه يمكن لاية اي انه يمكن لاية فئة اسلامية او مجتمع اسلامي ان يبادر الى احياء عاشوراء على طريقته باعتبار كونه يحيى الاسلام وينتصر لتلك الاهداف الاسلامية العامة لا غير من دون ان يتنكر لمذهبه او يجافي عقيدته او يتخلى عن اي من قناعاته المذهبية، بل يمكن فيما لو اردنا تلمس جملة من العناوين ذات الصلة والتي تعزز فكرة الاحياء الاسلامي العام لليوم العاشورائي بمعزل عن الادلة والعناوين الخاصة الموجودة في التراث الشيعي، حيث يمكن القول انه يؤدي الى:

1- الاسهام في تحقيق اهداف الثورة ذات البعد الاسلامي العام (اسلفنا الحديث فيه)

2- اظهار المودة لأهل البيت(ع) وهي مذكورة بنص القرآن الكريم.

3- التقريب بين المسلمين والغاء الحواجز النفسية وغير النفسية بينهم.

هنا قد يطرح سؤال اضافي انه لماذا لم يحصل هذا الامر سابقاً في المجتمعات غير الشيعية؟

أولاً ينبغي القول ان عدم حصوله لا يعني بالمطلق انه لا ينسجم مع االعناوين الاسلامية العامة، ثانياً يمكن القول ان لذلك ابعاداً اجتماعية وسياسية اكثر مما له ارتباط بالابعاد الدينية وخصوصاً انه عندما ينتشر تقليد ديني ما في مجتمع مذهبي ما، قد ينظر اليه خطأ باعتبار كونه يختص بهذا المذهب في حين ان حقيقته وابعاده قد تكون اشمل من ذاك المذهب وعابرة لجميع المذاهب بل والطوائف.

بناء على ما تقدم قد يكون من المفيد التفكير جدياً بإحياء سني لليوم العاشورائي بما ينسجم مع طبيعة الاجتماع السني وبالطريقة التي تتناسب مع الاعتبارات الاجتماعية القائمة لدى ذاك الاجتماع من دون الالتزام بتقاليد معينة في الاحياء او مراسم محددة قد تكون اخذت طابعاً مذهبياً، انما الكلام في اصل هذا الاحياء ومبدئه وذلك بهدف السعي الى تكوين مشروع احياء اسلامي عام تكون عاشوراء وثورة الحسين واحدة من اهم مرتكزاته الاساسية بما يؤدي الى تحقيق وحدتهم واجتماع كلمتهم وتقليص المسافات المصطنعة بينهم ونشر ثقافة التقريب في نفوسهم ومجتمعاتهم واوطانهم.